**المحاضرة رقم 08:**

**نصوص التاريخ الوطني في الجزائر من مبارك الميلي الى عبد الرحمن الجيلالي**

سنعالج هنا عددا من النصوص التاريخية التي تناول أصحابها تاريخ القطر الجزائري عامة بكل أقاليمه، دون الاقتصار على إقليم من الأقاليم ، وكان هذا الصنف من الكتابات قد ارتبط بالاحتلال والآثار المترتبة عنه، وأبرزها بداية تشكّل مفهوم الوطن عند هؤلاء الكتاب، إما بالاحتكاك مع الفرنسيين والتأثر بأفكارهم، وآرائهم في القومية، أو مع تنامي التيار الوطني الإصلاحي.

**\* نصوص مبارك الميلي**

يعتبر كتاب الميلي الأول من نوعه في التأريخ للجزائر عامة، وفي مختلف العصور بطريقة جديدة، ولذلك فإن الكتاب وصاحبه يستحقان التنويه، و قد ألف تاريخ الميلي في ظروف عصيبة كانت تمر بها الجزائر، حيث اعتقد الكثيرون أنها لم تعد عربية، وأن الفرنسية طغت وتحكّمت فيها، وخيّمت على عقول مثقفيها، حتى غدوا لا يفكرون إلا بها ولا يكتبون بغيرها، فجاء كتاب الميلي ردا على هذه الأباطيل.

و اعتُبر كتاب الميلي عملا تأسيسيا للتاريخ الجزائري الحديث، فقد دشن طريقة في كتابة التاريخ بقيت خطوطها العامة تسود الدراسات التاريخية الجزائرية خصوصا المكتوبة منها بالعربية مع تطبيقات متفاوتة في دقتها وتمكنها .

والميلي بتأليفه لهذا التاريخ أثبت أن الأمة الجزائرية لم تمت، وأنها لا تزال متمسكة بماضيها العربي الإسلامي، و لم يؤلف الميلي -كما قال مرتاض- كتابه رغبة في التأريخ فقط بل ألفه بدافع سياسي وطني، فهو أراد أن يرد على ادعاءات الفرنسيين القائلة أن الرومان قد جلبوا الخير للبلاد وأن العرب هم الذين عملوا على تخريبها.

من أجل ذلك ورغبة منه في تجميع ما تفرق من أخبار عن التاريخ الجزائري عبر العصور عمد الميلي إلى تدوين هذا العمل الهام، لأنه كان يعلم أن تأثير هذا الكتاب وقيمته النفسية والروحية والأخلاقية يكاد يساوي ثورة عسكرية قائمة بنفسها ضد الاستعمار.

وقد استعان الميلي في ترجمة النصوص التاريخية الفرنسية بثلاثة مترجمين ذكرهم بالاسم في كتابه، ويذكر ابنه الأستاذ محمد الميلي أن والده كانت له طريقة فريدة في ذلك فهو يمنح النص الواحد لمترجمين لا يلتقون مع بعضهم حتى تكون له ثلاث ترجمات مختلفة، ثم يعمد هو لتحريرها بأسلوب عربي سليم.

صدر الجزء الأول من تاريخ الجزائر في القديم والحديث سنة 1347 هـ/ 1929 موظهر اسمه عليه هكذا : مبارك بن محمد الهلالي الميلي، و أعلن عنه قبل صدوره، وتم طبعه في قسنطينة العاصمة الثقافية عندئذ، وحيث بدأت حركة الاحتجاج والعرائض منذ القرن الماضي، ومن ثمة يظهر هنا الارتباط بالتاريخ والتراث والحركة الإصلاحية.

اتبع الميلي منهجا جديدا في المؤلفات العربية عن الجزائر وهي استعمال التبويب وتقنيات البحث الحديثة، وكانت خطة الكتاب المعلنة في الجزء الأول هي اشتماله على ثلاثة كتب، أما الكتاب الرابع الذي لم يظهر فهو:" في مصير أمر الجزائر إلى الأجانب وأحوالها في هذا الدور."

و قال الميلي إنه يوجه كتابه إلى من يعتبرون ويتبصرون، ويطلب الرجاء بدل البقاء في اليأس، وكان غرضه الحث على العمل من أجل الوطن وسعادته، وهو كمصلح كان غير يائس ولا منتظر لنتائج عاجلة، ولكنه عبر عن أمان وقد أهدى كتابه إلى الشعب الجزائري وشبابه والعاملين من أجله

وجّه الباحثون للميلي عددا من الانتقادات منها انه كان مثلا لا يذكر دائما اسم المرجع الذي ينقل منه الخبر، وإن ذكر المرجع فهو لا يذكر الجزء والصفحة.

كما أشار بعضهم لقضية عدم إتقانه للغة الفرنسية، والتي جعلته يلجأ مثلا إلى الاعتماد على نصوص ابن خلدون في فترة ما قبل التاريخ، عوض النصوص التاريخية الفرنسية والبحوث الأثرية وهي كثيرة في هذا المجال

وثالث الملاحظات على كتاب الميلي أنه كان يمر على بعض الأحداث الهامة دون إعطاء تفاصيلها، في حين نجده يفصل في حوادث أخرى أقل أهمية من الأولى .

ورغم كل هذا فلا يجب التقليل من عمل الميلي وتحميله ما لا يطيق، فكتابه هو الأول في هذا المجال وكل من جاء بعده قد استعان به للتأريخ العام للقطر الجزائري، كما أنه أخرج عملا ضخما في ظروف سياسية حرجة، من رقابة من جانب الاستعمار وأعوانه، وجهل مخيم على عقول الناس وعدم إدراكهم للبعد السياسي للتاريخ.

ويبدو الميلي في كتابه ناضجا مقتدرا، حيث كان يتمتع بالجرأة الأدبية التي أعانته في عرضه الكثير من الأحداث التاريخية، فقد ناقش مثلا ظاهرة التصوف والارتباط بالأولياء، وهي الظاهرة التي حاربها التيار الإصلاحي بقوة، فالميلي يتحدث عن التاريخ الوطني والشعب الجزائري الموحد بالتراث والأرض والحركات السياسية والفكرية الماضية والآمال القادمة، وهو يعتبر الفرنسيين أجانب سواء كانوا مدنيين أو عسكريين.

إن الجدية في كتابة الميلي للتاريخ تظهر في عدة أمور، منها المنهج الحديث والتوجيه السياسي، واستعمال المصادر العربية ونقدها، واستعمال المصادر الأجنبية- الفرنسية- عن طريق الترجمة، واستخدام التقنيات مثل الخرائط والرسوم، والرد على النظريات المؤرخين الفرنسيين ومناقشة آرائهم دون إظهار التحيز لذاته. ونبه إلى ضرورة الابتعاد عن كتب الخرافات وتصديق كل ما جاء في الكتب القديمة، ودافع عن كوهن الإسلام نظاما حضاريا متكاملا، وركز على دور الشعب التاريخ ولم يهتم كثيرا بالملوك والأعيان، ومن مراجعة الفرنسية( وعددها اثنا عشر مرجعا) بارجيس وقزال وقوتييه وميرسييه ومرمول، وفيرو.

 كما أنه رجع إلى الكتب العربية الكلاسيكية( وجملتها 56 مرجعا)منها قرطاجنة في أربعة عصور للمدني، والأزهار الرياضية للباروني، وموجز التاريخ العام لعثمان الكعاك.

و لم يستطع الميلي أن يتخلص من ثقافته التقليدية فالنقول كثيرة، واستخدام أسلوب الرواية متوفر بكثرة، والاستشهاد بالشعر أيضا موجود في كتابه هذا، وإذا كان في الجزء الأول قد استخدم الهوامش، فإنه استغنى عنها تماما في الجزء الثاني، غير أنه في هذا الجزء استعمل فهارس الرجال والنساء وأسماء المدن، واشتمل الكتاب على الأحداث السياسية والتطورات الاجتماعية والاقتصادية، ولكنه اشتمل أيضا على التراث الحضاري للشعب من نظم وأدب ولغة وعقائد.

وليست الأمة الجزائرية جزءا من الأمة الفرنسية في كتاب الميلي، ولا متأثرة بالوجود الروماني وليست أرضا دون رعية .

ورغم أن الميلي رجل دين وفقه وإصلاح قبل أن يكون رجل تاريخ، وأنه لا يتقن الفرنسية التي كتبت بها أهم المصادر التاريخية عن الجزائر، إلا أنه حاول بما أتيحت له من إمكانيات أن يلتزم بالموضوعية في كتابته.

وفي الختام فإن عمل الميلي كان هاما في موضوعه وفي الظرف التاريخي الذي ظهر فيه واستحق معه الميلي صفة المؤرخ الساعي للموضوعية رغم الملاحظات السابقة التي أوردناها، والتي لا تقلل في شيء من عمله الذي اكتسى بعدا وطنيا منذ ظهوره، وهو يمثل نقلة نوعية ومبادرة جديدة في مسار العمل الوطني .

**\* نصوص التاريخ الوطني عند الاستاذ أحمد توفيق المدني:**

للمدني مؤلفات عديدة معظمها في التاريخ العام للمغرب العربي (شمال افريقية) والجزائر خاصة ومنها المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ومسرحية حنبعل الأدبية- التاريخية، وكل كتبه نشرت وهو في الجزائر إلا ثلاثة منها، وهي:تونس وجمعية الأمم، 1923، وهو مترجم إلى الفرنسية، ويعتبر من كتب الدعاية للقضية الوطنية التونسية والحرية ثمرة الجهاد، وهو عن نضال ايرلندا ضد الإنكليز، تونس 1923 والأجزاء الثلاثة الأولى من تقويم المنصور.

أما الكتب التي أصدرها وهو في الجزائر فهي جميعا في تاريخ الجزائر وجغرافيتها إلا ما يظهر من عنوانه أنه خارج عنها أو متصل بها من بعيد مثل حنبعل، وقرطاجنة، وصقلية.

 وكان المدني يغتنم الفرصة ويعبر عن رأيه الخاص في التاريخ الوطني، وحتى في الكتب التي تبدو بعيدة عن موضوع الجزائر بعناوينها، ذلك أن أطروحته الرئيسية هي التوجيه السياسي للشباب وبعث الوطنية التي يسميها الملية، في نفوسهم والدعوة إلى التحرر من الاستعمار الحديث بإدانة الاستعمار القديم الروماني، وإظهار شخصيته ببلاد المغرب المزيجة من البربر والعرب، وإبراز علاقاتهم بالمشرق قديما وحديثا. وهذه الأطروحة مكررة في معظم كتابات الشيخ المدني، وكان شعاره هو : الإسلام ديني، والعربية لغتي، والجزائر وطني، وهو الشعار الذي أصبح على لسان الحركة الإصلاحية.

**إسهاماته في التأريخ للقطر الجزائري:**

برز أحمد توفيق المدني بمؤلفاته العديدة والغنية، التي تصدرت أعمال النشطين الآخرين للحركة الإصلاحية، تشهد له بالثقافة الواسعة، والموهبة الأدبية الخاصة والمتميزة

لقد تصدى للكتابة التاريخية في فترة حرجة جدا من التاريخ الوطني، فمنذ عام 1925 م نشط في إخراج عدد من الأعمال التاريخية المختلفة، منها ما كان يصدر في الصحف والمجلات، ومنها ما كان يقدمه إلى المطابع في هيئة كتاب.

كان المؤرخ أحمد توفيق المدني هو المؤرخ الجزائري الوحيد الذي جمع بين الذاتية الجزائرية والإقليمية المغاربة في كتاباته التاريخية وهو من طلائع المؤرخين الجزائريين، الذين بدأوا يبحثون في تاريخ الجزائر قديما وحديثا ومعاصرا في العشرينيات من القرن الماضي"

وكان مؤلفا طويل النفس يتناول مواضيع أكثر ما كانت تاريخية، أو جغرافية، وهذا التنوع يبرز ظاهرة هامة جدا في النهضة الأدبية والثقافية المعاصرة في الجزائر.

والواقع أن المدني كان متنوع النشاط بين كثير من الأعمال الأدبية، ولو تخصص للتاريخ وحده، لكان أبرز المؤرخين الجزائريين، لإلمامه باللغة الفرنسية إلماما حسنا، ولنشاطه وحيويته وحماسه، وهذا الانشغال متعدد الوجوه، لم يكن- حسب العديد من الدارسين- صفة لازمت المدني وحده، بل كانت سمة عامة عند كثير من الكتاب، فالرجل كان متأثر بتيار هذه الظاهرة.

كانت الكتابات التاريخية للمدني تلقى نجاحا ملحوظا، غير أن أعماله لم تخل من بعض الهنات كسائر الأعمال الكبرى، وكانت هذه المآخذ خاصة في تعليل الأحداث وتحليلها، رغم أنها مسألة نسبية، حيث يتفق رأي الرجلين في أن المدني كان ذا نزعة دينية في معالجة الوقائع التاريخية، شأنه شأن جميع رفقائه في النهضة، وهو ما لمسناه من خلال استعراضنا لمؤلفاته.

حرر "المدني" مؤلفات قيمة، فتحت آفاقا عريضة وواسعة، شكلت قطيعة كاملة بالنسبة للمنشورات التقليدية في ميدان تاريخ الجزائر والمغرب العربي، والمعلوم أن معظم مؤلفاته نشرها بعد نفيه إلى الجزائر، إلا ثلاثة منها نشرها خلال تواجده بتونس، وسنحاول هنا اختيار ثلاثة نماذج من أعمالية التاريخية وهي المتعلقة بالتأريخ للقطر الجزائر عامة وهي : " **قرطاجنة في أربعة عصور**" الذي صدر سنة 1927 و "**كتاب الجزائر**" الذي صدر سنة " 1931" و" **محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791**" الذي صدر سنة 1937م " و" **هذه هي الجزائر**" الذي صدر سنة 1957.

**نصوص التاريخ العام للجزائر عند الشيخ عبد الرحمن الجيلالي**

صدر تاريخ الجزائر العام في جزئين سنة 1953، تناول فيه مؤلفه التاريخ الجزائري من أقدم العصور إلى العهد العثماني، وكان دافعه أيضا وطنيا فقد أهداه إلى عقبة بن نافع، ووجهه إلى الشباب، وكان ذلك رمزا لربط الحاصر بالماضي، فعقبة رمز للفتح الإسلامي، والشباب رمز اليقظة الوطنية، وكان هدف المؤلف أن يقتدي الجيل الجديد بأجدادهم، ولا ينغمسوا في الحضارة الأجنبية وينسوا ماضيهم، وتدل ثقافة الجيلالي على هذا

ويختلف تاريخ الجيلالي عن عمل الميلي في كون الأخير أكثر غزارة وأوضح في المنهج العلمي والعرض التاريخي من تاريخ الميلي، وذلك راجع لتقدم الأول تاريخيا عن الثاني، وعدم وجود ركائز صلبة يرتكز عليها في دالك الحين حيث لم يؤلف أي كتاب يتناول موضوعه بتلك الطريقة التي تناول بها هو.

وضح الجيلالي في حوار له مع جريدة المنار إثر صدور الكتاب مباشرة أن من دوافعه لهذا التأليف غموض التاريخ الجزائري وتشعبه وتشتته، وانه لم يدرس دراسة واضحة فأراد أن يطهره من هذه العيوب التي جعلت الناس يجهلونه، وحرص على أن يظهر لهذه الأمة " تاريخا ماجدا تستطيع أن تفتخر به" كما قال.

وأفاد الجيلالي أنه شرع في تأليف هذا الكتاب عند نشوب الحرب العالمية الثانية سنة 1939 مستغلا ظروف الحرب وانزواء الناس إذ ذاك واشتغالهم بشؤون الحرب، كما وضح أنه اعتمد على مصادر مخطوطة ومصادر باللغة الأجنبية.

وقد ركز في بداية كتابه على تعريف التاريخ وعلاقاته بالقومية، وخصص جزءا ضئيلا منه لتاريخ الجزائر قبل الفتح الإسلامي قبل أن يدخل في موضوعه فقد لجأ الجيلالي إلى تمهيدات ومقدمات ويرى مرتاض أنها كانت ضرورية لفهم السياق العام لموضوعه " لان المؤرخ لا يستطيع أن يحدثك عن الفتوحات العربية في شمال إفريقيا حتى يعرج على تاريخ الإسلام فيحدثك منه بطرف، فالقارئ هو الغانم المستفيد."

وتاريخ الجيلالي غزير المادة غني المعارف لا يخرج منه قارئه فقط بإلمامة شاملة عن تاريخ الجزائر بل يستطيع أن يلم بطرف من تاريخ الإسلام وكثير من أحوال الدول التي تداولت على حكم الجزائر خلال العصور البعيدة .

كما أن الجيلالي تميز بالدقة في تدوينه للتاريخ وحرص على إخراج عمله في أحسن حالة فهو لا يكتفي بعرض الأحداث كرونولوجيا بل انه يقدم في نهاية كل فصل جدولا تاريخيا لأهم ما عرفته الدولة التي ذكرها .

كما تميز تاريخ الجيلالي عن سابقيه بتناوله للنواحي الثقافية والفكرية للجزائر كتراجم العلماء وذكر مؤلفاتهم، والإشارة كذلك لبعض النواحي الاقتصادية.

وهو يعد بحق موسوعة ضخمة للمعارف التاريخية وهو خليق أن يفيد القارئ إفادة عميقة إذ كان عبارة عن عرض مفصل وطويل لسائر الأحداث التاريخية الهامة التي كانت لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بتاريخ الجزائر عبر العصور.

توسع الجيلالي في التاريخ منذ الفتح، ورجع إلى عدة مراجع، منها العربي هو الغالب( 61 مرجعا) واعتمد على بعض المخطوطات،و الجيلالي لا يعرف الفرنسية إلا قليلا، ولذلك اعتمد على تراجمه فيما أخذه منها وهو في هذا يلتقي مع الميلي، كما يلتقي معه ومع المدني في الرؤية الوطنية للتاريخ وتوظيفه لخدمة الشباب والجيل الجديد عموما وضرورة بعث التاريخ لخدمة الحاضر**.**

 ويمتاز تاريخ الجيلالي بالتبويب المحكم، وترتيب الأدوار التاريخية، وذكر جداول الدول وتراجم بعض المشاهير، وقد دعا أيضا إلى المحافظة على الهوية الوطنية واحترام الأسلاف، والارتباط بالدين والوطن، وشمل تاريخه أيضا ذكر الأسباب في ظهور الدول واختفائها، ودوام النظم وانقراضها، بالإضافة إلى التعرض للوضع الاقتصادي والحضاري.

وحاول الجيلالي أن يكون موضوعيا في عرضه للكثير من الأحداث التاريخية وان كانت قضية الموضوعية المطلقة بالنسبة لمؤرخ قضية مستبعدة بحكم ارتباطه بأمته وانفعاله مع قضاياها.

والجيلالي يستشهد بنصوص كثيرة ومختلفة، وحتى الأدبية منها للتعبير عن الحالة الفكرية للدول التي تطرق لتاريخها فغالبا ما يكون الأدب وخصوصا منه الشعر أحسن تعبير للحياة الفكرية لأمة من الأمم.

ومن مآخذ كتاب الجيلالي إطنابه في بعض المواضيع البعيدة عن موضوعه كموضوع تاريخ العرب والسيرة النبويةالتي كان من المفترض أن تذكر غرضا فقط لينتقل بعدها لصلب الموضوع

و وقع الجيلالي رغم حرصه فيما وقع فيه الميلي من إهماله أحيانا ذكر مصادره أو إهمال صفحاتها في حال ذكرها .

ومهما يكن فان الجيلالي قد أنفق وقتا كبيرا وجهدا معتبرا في إخراج كتابه هدا وهو ما تشهد عليه مادته الخصبة ومعارفه الواسعة فهو كتاب هام لا غنى عنه لأحد يريد أن بلم بتاريخ الجزائر خلال أطوار التاريخ المتباعدة التي عالجها.